البيان

السنة الاولى — الجزء الثاني

اول ابريل سنة ١٨٩٧

القوى النفسانية في الاطفال

لا شيء احقُّ بالانسان وأليق بهِ من معرفتهِ حقيقة نفسهِ ولا شيء اكثر امتناعاً عليهِ وابعدُ عن مرامي بصرهِ من ادراك ما وَسِعهُ هيكلهُ من القُوَى العجيبة والتراكيب الغريبة ولذلك قالوا الانسان اشياءُ كثيرةٌ فلكثرة ما هو بهِ كثيرٌ يعجز عن ادراك ما هو بهِ واحدٌ. لاجرم أنّ هذا الهيكل العجيب والبناء البديع الذي هو آية الله في خلقهِ مؤلفٌ من دقائق لا يحصيها العدُّ ولا يحيط بها الادراك كلٌّ منها يقوم بعملٍ خاصّ ويستقلُّ بحياةٍ خاصّة ويعمل بالقوى الفاعلة في جميع الاجسام. وهذه الدقائق على كثرتها وتباين اشكالها واختلاف اوضاعها وتنوُّع العناصر المكوِّنة هي منها تنضامُّ فتكوّن منها الاعضاء وتتكافأ في القيام بما أُرصِدَت لهُ من المنافع التي تضمن لجملتها انتظام الاعمال الحيوية الى الاجل الذي أُتيح لها. فمعرفة الانسان نفسهُ من حيث هو مركَّب على كمال خَلقهِ وتمام خُلُقهِ لا يتهيأُ الاحاطة بها لعاقل لِما يقف دونها من العقبات المنيعة ولا سيما في ما اختص منها بالنفس الناطقة التي هامت العقول في اودية

البحث عنها والتطلع الى غوامض اسرارها فهي المشكلة المعضلة التي ما برح الطبيعيون والفلاسفة والمتكلمون يتجاذبون اطراف حلّها كلُّ فريق على نحو ما فتح عليهِ مقدار علمهِ وثقوب ذهنهِ

لا جَرَم ان النفس البشرية مع ملازمتها لبدن الانسان وحلولها فيهِ من ابتداء تكوينهِ انما تُعرَف بالقُوَى التي تصدر عنها والظواهر التي تبديها ونحن انما نبحث عنها الآن بحثاً علمياً في ابسط احوالها منذ تجليها على هذا الكائن الحيّ وهو جنين في احشاء امهِ الى ما بعد ميلادهِ بثلاثة اشهر مقتصرين في ذلك على ما قلّ ودلّ من غير تعرّض للمذاهب الفلسفية والمغالطات الجدلية اذ ليس من غرضنا الجولان في فيافي الخيال ولكننا انما نؤثر تقرير الحقائق العلمية الثابتة ببرهان المعاينة والامتحان

ذهب أرسطو الى ان النفس تظهر في الجنين بعد اربعين يوماً من حملهِ وعليهِ جمهور المتقدمين ومنهم حكماء العرب والقديس توما اللاهوتي[1] . ومن الثابت اليوم ان الجنين يتحرك في الاسبوع الثامن حركة رحوية فيتخذ الحبل السُرّيُّ الشكلَ اللولبيَّ والدليل على ان هذا الشكل من حركتهِ ان الحبل المذكور لا يكون كذلك في الكثيرات الاجنة في الحمل الواحد اذ لا يبقى لأجنّتها مجالٌ للحركة وربما تحرك حركة اختلاج وارتعاش منذ الاسبوع الرابع وهو وقت تكوُّن الاطراف . ولا تشعر الأُمّ بارتكاض الجنين الّا منذ الاسبوع الثامن عشر وهي حركة تزداد بمقدار نمآئهِ حتى يولد وربما دلت على بعض المؤثرات الخارجية كالاحساس بالبرد . اما حقيقة هذه الحركات وهل هي صادرة عن غير وجدان او

---

١ زعم ارسطو ان الجنين يكون ذا نفس فى اليوم الاربعين اذا كان ذكراً وفى اليوم الثمانين او التسعين اذا كان انثى وتابعه فى ذلك القديس توما اللاهوتى

هل يجوز ان تظهر قوى النفس قبل الولادة فالباحثون في منافع الاعضاء على انها قسرية من حيث طبيعتها منعكسة من حيث مصدرها والمتكلون يقولون ان الجنين يشعر باللذة والالم ولا ريب في ان ذلك لا يكون الا عن وجدان فهو ذو نفس كاملة . ولا يُنكر أن الوجدان موجودٌ حينئذٍ في ابسط احوالهِ وانما هو أثريٌّ يأخذ في النماء منذ ذلك الحين ولا يزال يزداد ويتكامل بعد الولادة حتى يصير الطفل قادرًا على تميز نفسهِ عن غيرهِ من الكائنات . وعليهِ يكون مبدأ القُوَى النفسية الفعل العصبيَّ المنعكس حيث لا يكون للعقل والارادة سلطان ولو كان للحركة الصادرة عنهُ علةٌ غائية مقصودة اذا لافعال لا يكون بدون فاعل .

ثم ان الجنين يُولد لتمام حملهِ طفلاً لا قِوام لهُ في ذاتهِ لانهُ لا يستطيع ان يستقلَّ بنفسهِ متحركاً حركةً يتوصل بها الى جلب النافع ودفع الضارّ وحواسُّهُ لا تعينهُ على معرفة الموجودات مما حواليهِ فلا تطرق بها المحسوسات الى قوى النفس الباطنة وكأنهُ قد أُلقي في تيّار هذا العالم بين اضطراب امواجهِ وليس لهُ من نفسهِ ما يساعدهُ على العوم فيهِ فاذا لم ترأمهُ أُمُّهُ يهلك . واول ما يبديهِ عند الولادة استهلالهُ بصياحٍ يدل على تألُّمهِ لتغيُّر البيئة عليهِ وملامسة الهواء جلدهُ ونفوذهِ الى مسالك التنفس حتى اقصى حويصلاتها وتأثير اشعة النور على شبكيتهِ الى غير ذلك مما لم يألفهُ من قبل . وكأن المولود ينعر لساعتهِ من وحشةٍ يجدها لفراق وطنهِ الذي كان فيهِ او كأنهُ يشكو ضعفهُ في تنازع البقاء ومغالبة الطبائع وفي ذلك مجالٌ ينفسح فيهِ القول للفلاسفة والشعراء بالحِكَم وما احسن قول ابن جريج الرومي وقد ذكر هذه الحالة وما تُأوِّل به من لطيف الحكمة

لِما تُؤذِن الدنيا بهِ من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يُوضَعُ

والاّ فما يُبكيهِ منها وانها لأفسحُ مما كان فيهِ واوسعُ
اذا عاينَ الدنيا استهلَّ كأنهُ بما سوف يلقى من أذاها يُفزَّعُ[1]

ثم انهُ يكون في بدآءة هذا الطَوْر من حياتهِ قاصرًا همهُ على الغذآء والنوم فلا يظهر من آثار قُوَى النفس حينئذٍ الاّ الاعمال التي يسميها علمآء المنافع بالمنعكسة والفلاسفة بالقُوَى البهيمية او الشَهوية . على ان حاسّة اللمس تكون موجودة لان الجُسَيمات والالياف العصبية تتكوَّن في الشهر الثامن من الحمل وتنمي نمآء سريعاً فيبلغ وزن الدماغ عند الولادة ٣٨١ غراماً وفي السنة الاولى بعد الولادة ٩٤٥ غراماً وتظهر تلافيف الدماغ في الجنين منذ الاسبوع العشرين وتزداد غورًا وامتدادًا بتقدم العمر ومنذ ذلك الوقت تتعين المراكز العصبية التي ترد اليها المؤثرات الخارجية وتصدر عنها الحركات المتساوقة . ولذلك كان مبدأُ القُوَى النفسية ورسمها ظاهرًا منذ الولادة لما هو معلوم من ان اعمال العقل لا تقوم الاّ بالمجموع العصبي فقول علمآء المنافع انها موقوفة على حركة الدقائق العصبية غير سديد لان بين حركة الدقائق والوجدان بونًا سحيقًا

ومعلومٌ ان الانسان في مبدأ الفطرة خالٍ من تحقق الاشيآء الاّ انهُ مجهزٌ بآلاتٍ يُدرِك بها كيفياتها بما بينها من المناسبات والمباينات فينتزع المعلومات الصادقة المحقَّة . وهذه الآلات هي الحواسّ الخمس التي تنقل المحسوسات الى الحسّ المشترَك فيعرضها على القُوَى العقلية حيث يقع الادراك والتمييز والحكم والارادة وتصدر الافعال المحركة وغيرها . ولكلٍ من هذه القُوَى مقرٌّ خاصٌّ في الدماغ يتعين

---

(١) وتروى هذه الابيات بثلاث قوافٍ غير هذه قيل فى الاولى منها يولد وفى الثانية ارغد وفى الثالثة يهدد فيكون فيها على هذا نوع التخيير المشهور عند اهل البديع

بعد الولادة اذ لا سبيل قبلها للتأثر بالمحسوسات الخارجية فقد ثبت ان الحيوانات التي تولَد عمياً كالكلاب لا يتعين مقرُّ القوَّة المحركة في قشرة ادمغتها الّا بعد ان تبصر بثلاثة ايام فالحركات التي تبديها قبل ذلك انما تكون منعكسة مصدرهـا النخاع المستطيل لا الدماغ لانها غير خاضعة للارادة خلافاً للحيوانات التي تولَد مُبصِرةً كالخنزير والقنفذ فان حركاتها تكون ارادية صادرةً عن مقرٍّ معين في الدماغ ينشأُ حين الولادة باقتضاء المنفعة المترتبة عليهِ كما هو الحال في الاعضاء التي يتوقف وجودها على عملٍ تتفعل بهِ اذ تكون المنفعة هي العلة الفاعلة في التكوين. ولا ينكر أنّ للإرث شأناً في ذلك فأن العضو يتهيأ بواسطتهِ للعمل قبل ان يقع على الحيوان تأثيرٌ من الخارج

واللمس هو اول الحواسّ منشأً واعظمها للحيوان نفعاً وكثيرٌ من الحيوانات السافلة ليس لهـا من الحواس غيرهُ. على انهُ يظهر في النوع الانساني في الشهر الخامس من الحياة الجنينية ويكون أثريًّا غير منتظم الى ما بعد الولادة بشهرين فيصير حينئذٍ وسيلةً لادراك اول ما يتهيأ للاطفال ادراكهُ من المحسوسات الخارجية

وينشأ الذوق على اثر نشوء اللمس لان الحاجة ماسّةٌ اليهِ منذ الولادة فاذا أُدخلت حينئذٍ اصبعٌ الى فمِ المولود مصَّها كأنهُ يحاول الرضاع ثم يتبرَّم من ذلك بعد ايام كأنهُ قد شعر بالفرق بين الوهم والحقيقة. واذا أُعطي لبن البقرة غير محلًّى بقليل من السكَّر مجَّهُ وذلك دليل على سرعة نمـاء هذه الحاسة فيه. وبعد قليل يظهر تعلُّقهُ بمرضعهِ واذا اتى عليهِ شهران منذ ولادتهِ لم يعد يطيق استبدالها وليس الامر كذلك من قبل. على ان هذه الحاسة تجلب للطفل لذة لا تجلبها حاسةٌ اخرى في بدء امرهِ

والشمّ انما ينشأُ بعد نشوءِ الذوق بمدةٍ فهو متمٌّ لهُ اذ يكون وسيلةً لمعرفة الطفل بمرضعهِ بعد شهرين من ولادتهِ وقد رُوِيَ انهُ كان لداروين طفلٌ يستروح امهُ عن بعد ٨٠ ميليمترًا فيحدّق ببصرهِ اليها و يحرّك شفتيهِ طلبًا للرضاع

ومعلومٌ ان طفل الانسان يُولَد غير مغمض العينين فاذا عُرّض للنور عند ولادتهِ انقبضت حدقتاهُ وطرف بجفنيهِ وهو دليلٌ على تأثر الشبكية ولكنهُ في الحقيقة لا يبصر لان مقرَّ البصر في الدماغ لا يتعين حينئذٍ وانما يتعين بعد الممارسة والتكرار وألفة الاشياءَ المُبصَرة على التدريج حتى تظهر قوة التنبه عند نهاية الشهر الاول بعد الولادة. ولا مراءَ في ان حاسة البصر هي رائد العقل في ادراك المحسوسات لانها الوسيلة لادراك الابعاد ومعرفة السطوح ولايتهيأ ذلك الاّ في الشهر الثاني وهي تشترك مع حاسة اللمس في تمهيد السبيل لمعرفة الطفل باستقلال جسدهِ عن الاجسام حواليهِ

اما حاسة السمع فتظهر في الطفل بعد ثلاثة ايام من ولادتهِ بدليل انهُ يصيخ للمناغاة ويثور جأشهُ بالصخب على انها اقلُّ نماءً من حاسة البصر لاقتصارها على معرفة الاصوات

وهنالك قوًى نفسانية أُخر تظهر في الاطفال منذ نشأتهم مصدرها الفطرة وغايتها المحافظة على البقاءِ وليس لها علاقة بالوجدان ولكنها تنتقل اليهم بطريقة الإرث الطبيعي وقد سميت بالخُلق والسليقة والغريزة وسماها الحكماءُ بالقُوَى الشهويّة والبهيمية ومن خصائصها التماس المنافع ودرء المضارّ. ومنها التنفس وهو اول تباشير الحياة يظهر حال الولادة اذ يباشر الهواءُ جسم الطفل. والنوم ويترجح حدوثهُ قبل الولادة فيعلل بهِ عن الفترة في حركات الجنين وهو لا يستوقف قوى النفس لان بعض الاطفال تظهر عليهم ابتسامةٌ في النوم كانهم يرون رؤًى

مفرحة وبعضهم يحركون شفاههم للرضاع واحياناً تُرَى المقلة تتحرك تحت الجفون الوَسنى . والغالب على الاطفال النوم كثيرًا ولا سيما في النهار حتى يبلغوا اليوم العشرين من ولادتهم فيقلُّ بالتدريج بعد ذلك . ومنها الخوف وهو في الاطفال مسببٌ عن امور لا يكترث لها غيرهم كالقماط والغسل . والبكاء وهو لا يكون الآ بعد نشوء الغدد الدمعية عقيب الولادة بعشرين يوماً وما كان قبل ذلك فهو صياح وصراخ . والابتسام وهو لا يكون قبل الشهر الاول . والضحك وهو لا يظهر الآ بعد نهاية الشهر الثاني الى غير ذلك

والطفل يبقى في اول اطوار الحياة مدةً تحت مَلَكة الافعال العصبية المنعكسة واحكام الغريزة لا يُدرك من حقيقةِ ما يعرف بهِ ذاتيتهُ ولا يميز بين جسمٍ وآخر فعلى حواسهِ أثريٌّ ووجدانهُ مفقود الى ان يصير قادرًا على تحقق بُعد الاجسام واختلاف سطوحها بواسطة البصر وذلك لا يتأتى لهُ الآ عند نهاية الشهر الثاني من ولادتهِ . ويُستدَلُّ عليهِ في الاسبوع السادس بعد الولادة بحركةٍ ارادية تظهر بتوجيه الطفل رأسهُ نحو أُمّهِ اذا سمع صوتها فيتعلم ثمت ان يوجه عينيهِ نحو الاشياء المرئية ويمرُن على ذلك الى ان يصير قادرًا على تسديد بصرهِ فتظهر حينئذٍ علامات التنبُّه في بدء نشأتهِ

ويصاحب نماء حاسة البصر على ما تقدم ارتقاء حاسة اللمس فالطفل في بدء حياتهِ يمسك الشيء الذي يوضع في راحتهِ بدون وجدان فانقباض يدهِ حينئذٍ انما هو فعلٌ عصبيٌّ منعكس غير خاضع للارادة ثم يصير بتكرار التجربة والممارسة عملاً ارادياً يصاحبهُ نموُّ الحِسّ العضلي فتظهر الحركات العضلية المتساوقة

ومتى بلغ الطفل الشهر الثالث من عمرهِ قويت حواسهُ على تحقق المحسوسات وخضعت الافعال العصبية المنعكسة لسلطان العقل والارادة وانفتحت

لهُ ابواب الهداية بما يُعرَض عليهِ من المؤثرات التي يستفيد منها العلم بما يكون نافعًا او ضارًّا فيألف النافع وينفر من الضار ولا تزال القوى العقلية تنمي بالممارسة والاكتساب طورًا فطورًا والاستعداد الطبيعي يمهد امامها سُبُل الارتقاء حتى تبلغ الشأوَ العجيب . ومن الغريب ان الانسان في بدء امرهِ ينسى كثيرًا من الحوادث والآثار التي ترد عليهِ فلا يحفظ منها الّا ما كان مفيدًا لهُ في امر تنازع البقاء ولذلك كانت الذاكرة ضعيفة في اول العمر

ومعلومٌ ان هذه القوى تكون في الحيوانات غريزية في اصل فطرتها فالفراخ مثلاً تلتقط الحب حالما تنقف وأجراء الكلاب تمشي عند ما تولد والمهر يستوي على قوائمهِ حينئذٍ والقرد يتسلق الاشجار بخفة منذ ولادتهِ . ولكن ذلك فيها يقف عند درجة القوَّة البهيمية فلا يتعداها الى القوى السامية المميزة للانسان وهي التي تدخل تحت الارادة والعقل و تأخذ في النماء والارتقاء منذ اول اطوار حياتهِ على ما تقدم بيانهُ حتى تبلغ فيهِ الى درجة الكمال

المصريون

(تابع لما قبل)

والقبط من حيث المذهب ينقسمون اليوم الى ثلاث فِرَق ارثوذكس وانجيليين وكاثوليك والارثوذكس هم اقدمهم عهدًا واكثرهم عددًا[1] واشدُّهم

---

١ زعم بعضهم ان القبط يبلغون الان ٧٠٠,٠٠٠ فاكثر ولم نقف على ما يثبت هذا القول فى احصاء يعتمد عليه والذى تحققناه على ما فى المؤلفات الموثوق بها انهم لا يزيدون على ١٥٠,٠٠٠ كما تقدم لنا ذكره (راجع موسوعات العلوم الفرنساوية الكبيرة فى لفظة « كنيسة القبط » صفحة ٦٢٦ من المجلد ١٥) الا ان فلاماريون ذكر فى معجمه الجارى الان طبعه انهم يبلغون ١٦٠,٠٠٠ وعلى كل حال فالحقيقة